إبراهيم باشا

موقعة نصيبين

— ٢ —

واستقبل حافظ باشا الأمير ألاي والبكباشي الذي كان بصحبه أحسن استقبال ، وأتحفهم بالهدايا وأخبرهم أنه سيرسل رده في اليوم التالي . وكانت الروح السارية في هذا الرد من أوله إلى آخره هي أن الخضوع لا يكون بالأقوال بل بالأفعال . ثم انتقل حافظ باشا من هذا المبدإ إلى قوله إنه لا يعترف بأن التهم التي يوجهها إليه إبراهيم قائمة على أساس صحيح ؛ وحاول أن يثبت أن الجنود المصرية لا الجنود الشاهانية هي المعتدية ، وجاء في ختام هذا الخطاب ما يأتي :

« لقد أعطيت لنفسي الحرية في كتابة هذه الرسالة الودية ، لتكون دليلا على حسن نيتي ؛ وقد أرسلتها مع الأمير الاي ليذيق بك وبصحبته الأمير الاي أجد بك من ضباط الجيش الشاهاني فلفر . وعند ما تصلكم هذه الرسالة إن شاء الله سيتوقف العمل فيها على حكمتكم السامية »[1] .

وبينما كانا القائدان يتبادلان الرسائل على هذا النحو ، كان الرسول يستحث الخطي إلى إبراهيم ، يحمل إليه رسالة من أبيه مؤرخة ٩ يونية سنة ١٨٣٩ يقول فيها :

« تسلمت رسالتك التي تقول فيها إن العدو يواصل زحفه وإنه احتل الآن ستين قرية وراء عينتاب ، وإنه وزع السلاح على الأهالي وحرض العصاة على مهاجمة عكار[2] وسلب أموالها وقتلها . وقد قلت بعد ذلك إنه ليس من الحكمة أن يسمح للأتراك بالسير على هذه الخطة ، وطلبت إليّ أن أخبرك بما تفعل .

« إن اعتداء العدو علينا قد تجاوز كل حد معقول ، وإذا ما صبرنا عليه بعد ذلك عز علينا أن نقفه ، لأنه ينذر بذور الفتن ذات اليمين وذات الشمال ؛ وكلما صبرنا عليه رغبة منا في عدم معارضة رغبات الدول الكبري ، زاد عدوانا إيغالا في بلادنا وزادت الأمور حرجا . وتلك حال ترغمنا على العمل ؛ فعلينا أن نرد هجومه بهجوم مثله . ولما كان العدو هو المعتدي فإن الدول لن تلقي التبعة علينا .

« فنصيحتي إليك أن تبادر عند وصول رسالتي إليك بالهجوم على جنود العدو الذين دخلوا في أرضنا ، وأن لا تكتفي بإخراجهم منها ، بل عليك أن تزحف على جيش العدو الأكبر وتقاتله »[1]

ووصلت هذه الأوامر إلى إبراهيم في غسق الليل ؛ فأراد أن يهاجم العدو عند مطلع فجر اليوم التالي . ورأى سليمان باشا (الكولونيل سيف ساعد إبراهيم الأيمن ، الذي طالما أشرنا إليه في هذا الكتاب) غير هذا الرأي ، وأصر على أن وجود الضباط البروسيين في جيش حافظ باشا يحمله على الظن بأن مواقع العدو قوية محصنة ؛ وطلب الضابط الفرنسي أن يستكشفها بنفسها تلك المواقع قبل الهجوم عليه . ولما كان من شيمة إبراهيم أن ينصاع دائما إلى حكم العقل ، فقد قبل هذا الرأي عن رضى وطيب خاطر .

وفي صباح اليوم التالي اضطلع القائدان نفسيهما بتلك المهمة الخطيرة ، مهمة استطلاع مواقع الجيش التركي . وما زالا يقتربان من خط النار حتى أصاب الرصاص حصان أحد جنودهما فقتله وكانت نتيجة هذا الاستطلاع أن عرفا أن نصيبين التي اعتصم بها حافظ باشا أمنع من عقاب الجو ، وأن ليس في مقدورهما أن يستوليا عليها عنوة[2] ، لأن فون ملتكه وفون ملباخ ندبا معسكر الأتراك عند سفح التل الذي يجري عنده نهر كرزين[3] وجعلا هذا النهر حائلا بين المصريين والجيش التركي . ولذلك اضطر المصريون أن ينسحبوا من مواقعهم ويهاجموا العدو من جهة أخرى . وأيقن إبراهيم وسليمان باشا أن الفضل في اختيار هذا

(١) المصدر عينه الجزء الأول ص ١٩٧

(٢) بلد صغير واقع على بعد ٣٢ كيلو مترا من شرق طرابلس والذين جموا عليه في ذلك الوقت هم الشاولة . (المعرب)

(١) نترجمه في كتابه السالف الذكر ص ٣٠٩

(٢) المصدر عينه ص ٣١٢ .

(٣) هو نهر يصب في الفرات وتقع نصيبين على ضفته اليسرى . وقد كتبه المؤلف وفتر نيبه كرسيم وكتبه فريد بك قرصيم ، ولكن الخرائط التي اطلعنا عليها . وكذلك كدلفين وزميله والرافعي بك يكتبونه كرزين (المعرب)

الموقع المنيع الذى اتخذه الجيش التركى لنفسه يرجع إلى مهارة الضباط البروسيين وخبرتهم الفنية ، ولكنهما قدرا أن الألمان لن يستطيعوا أن يتنبأوا بالحركة الجريئة التى سوف يقدمان عليها

والحق أنهما لم يخطئا التقدير ، لكنهما حين أقدما على ما أقدما عليه عرضا أنفسهما لأشد الأخطار رغم أنهما بنيا خطتهما على نفسية البروسيين وعقلية الأتراك . وقد وصف تلك الخطة إيميه فنترنييه Aimé Vingtrinier صاحب سيرة سليمان باشا بقوله :

« وكانت فكرة سليمان وميضاً من العبقرية إذا أفلحت وأوهاما من عقل مخبول إذا أخفقت . ولكنه كان مؤمناً بصوابها ، واستطاع أن يبث هذا الإيمان فى الجيش كله لافرق بين قائده الأعلى وأصغر جندى فيه »[1] .

وكانت الخطة التى نفذت بإشراف إبراهيم وعلى مسئوليته هى أن يترك الجيش المصرى المعسكر الذى كان يحتله وقتئذ ، ويسير مخترقا قرية مزار[2] ، وأن يتم ذلك بين طلوع الفجر وغسق الليل ؛ ثم يلتف حول جبل بيازار ويعود بعدئذ فيتجه نحو العدو مولياً وجهه شطر الجنوب فى اتجاه قرية كرد قلعة[3] ، وكانت الفكرة التى بنيت عليها هذه الحركة كلها هى : أولا أن ڤون ملتكه عند مايرى أن الجيش المصرى قد رفع معسكره لايشك مطلقاً فى أن قواد هذا الجيش لن يفعلوا ما كانوا ينوون أن يفعلوه ، وهو تعريض جناحهم للخطر ، وأنه سيمكنهم بذلك من أن ينفذوا الشطر الأول من خطتهم قبل أن يدرك حقيقتها . وثانياً أن ڤون ملتكه إذا ما أدرك حقيقة الموقف وأراد الانسحاب إلى مواقع خير من مواقعه الأولى ليهاجم منها المصريين قبل أن يصلوا إلى أماكن آمنة ، لن يتمكن من التغلب على كبرياء القائد التركي ، بل إن هذا القائد سيتغلب على المنطق للألمانى الضعيف .

ويقال إنه لما فرض حافظ باشا رأيه على الضباط الألمان غضبوا أشد الغضب ورفعوا إليه استقالتهم ، فلما فعلوا ذلك قال لهم السر عسكر : « إن الجندى لا يستقيل قبيل الموقعة » . وكان هذا الالتجاء إلى المباديء الخلقية العسكرية كافياً لحل المشكلة ، فلم ينسحب ڤون ملتكه بل أفرغ وسعه في معالجة هذه الحال الطارئة ، فعدل خططه ونقل مدافعه التى أصبحت عديمة الفائدة لأن المصريين أبوا أن يقدموا أجسامهم طعاماً لنيرانها ، ووضعها حيث يمكنه الاستفادة منها . وأيقن أن الموقعة الحاسمة ستبدأ عند مطلع فجر اليوم التالى ، وكان يخشى أن تكون نتيجتها وبالاً على الجيش العثمانى ، لأن إبراهيم خرج على القوانين الحربية ، فأبى أن يتبع البديهيات الأولى فى فن الحروب ، وخرق مبادئها الأولية . ولشد ما تألم ذلك العالم الخبير بفنون الحرب حين رأى أن عدوه قد أبى أن يعمل ما يجب عليه أن يعمله . ولا شك فى أنه كان يعتقد أن أمثال ماكاهون Mae Mahon وبازين Bazaine[1] ممن يتمسكون بالقواعد والأصول ، خير من رجال كابراهيم أو سليمان باشا يضعون قواعدهم لأنفسهم .

وما أسفر صبح اليوم الرابع والعشرين من شهر يونيه حتى بدأت المعركة بهجوم المصريين . وكان جل اعتماد الأتراك على فرسانهم لأنهم ظنوا أن طبيعة الأرض تحتم عليهم اتباع هذه الخطة الحربية . وقد يكونون مصيبين فى ظنهم لأننا لاندعى لأنفسنا تلك الخبرة بالفنون العسكرية التى تمكننا من أن نبدى رأيا فى هذا الموضوع . وكل الذى يعنينا هنا هو أن مشاة المصريين صدوا هجوم الفرسان العثمانيين ، فولى هؤلاء الفرسان الأدبار لا يلوى آخرهم على أولهم . وعندئذ وقع الاضطراب فى صفوف الجيش العثمانى كله فتضعضعت أركانه ولم تأت الساعة التاسعة حتى كان إبراهيم سيد الميدان غير المنازع .

وأقبل إبراهيم على خيمة حافظ باشا . وقد وصفها فنترنييه وصفاً لا نعتقد أنه كان جاداً فيه ؛ لأنه قال « إنها كانت واسعة الأرجاء كأنها قصر مشيد ، مزخرفة كأنها حجرة استقبال

(١) المصدر عينه ص ٣١٤ .

(٢) تقع هذه القرية جنوبى نصيبين بفرسخ . (المعرب)

(٣) فى الجزء الأول من كتاب كدلفين وبرو وفى كتاب الرافعى بك رسم واضح لموقعة نصيبين ومواقف الجيوش المحاربة والأماكن الواردة هنا فليطلع عليه من شاء . ولم نعثر فى جميع المصادر التى اطلعنا عليها على اسم القرية التى يسميها فنترنييه والمؤلف Kardikala ويسميها كدلفين وزميله Coadikala ، وقد راجعنا من أجل ذلك منجد المصادر التركية قاموس الأعلام لشمس الدين سامى بك ومعجم التاريخ والجغرافيا لعلى جواد بك والكتاب السنوى لولاية حلب وبعض الأطالس التركية عدا المصادر العربية الكثيرة ، واستعنا بمن نعرفهم من أفاضل الأتراك والسوريين . وأكبر ظننا أن الاسم الذى أثبتناه هنا هو الاسم الصحيح (المعرب)

(١) قائدان من قواد الحرب الفرنسيه الألمانية (١٨٧٠ — ١٨٧١) هزمهما الجيش الألمانى فى هذه الحرب . (المعرب)

حد الأباطرة العظام ، يبهر الرائى جلالها وعظمتها » [1] يبدو ، هذا القول كثير من المبالغة ، ولكن الذي لا شك فيه أنه ان فى هذه الخيمة المزخرفة أريكة من الأرائك التركية المطعمة صدف ، البعيدة عن الذوق والجمال الفنى بعدها عن النفع ، ثمنها ظيم ولكن الجالس عليها فى عناء . وقد ترك بعضهم على هذه أريكة أوسمة حافظ باشا ورسائله .

فلما دخل ابراهيم هذا المسكن المؤقت المترف ، الذي لا نشك أن ڤون ملتكه كان بعده مخالفاً للسطرين الثالث والرابع من نقرة التاسعة من القسم الرابع عشر من المادة الثانية عشرة بعد اثنين من القواعد الخاصة بنظام الجيوش فى الميدان ، كان يكسوه شير ويتصبب من جبينه العرق . ولما رأى هذه الأبهة الكاذبة سم ابتسامة ملؤها السخرية والازدراء ، ومشى من فوره إلى أريكة غير حافل بالأوسمة التى لم تكن لها قيمة فى نظره ، لأنه كبر من أن يهتم بهذه الصغائر . ولكن الوثائق المتروكة وما يكون فيها من أمور ذات بال استرعت نظره ، فوقف يفحصها إذا به يجد فيها فرمانا يعين حافظ باشا والياً على مصر بدل الده [2] فأمر أن يعنى بفحص الأوراق الباقية عساه أن يجد ها من المعلومات ما له قيمة حربية . وبعد أن وكل هذه الأمور إلى ن يعنى بها ، أرسل الفرسان المصريين لمطاردة الأتراك الفارين ، عد المدة لمواصلة الزحف على مرعش وملطية وديار بكر

ويقول لنا القنصل اليوناني العام فى تقريره المرسل إلى أثينا ، ابراهيم كتب إلى محمد على من خيمة حافظ باشا نفسه ينبئه زيمة الأتراك ، وأن الموقعة لم تدم أكثر من ساعتين ، وأن بشير وصل بهذا النبأ السار إلى القاهرة في اليوم الثالث من هر يوليه [3] ؛ ومنها أرسل بالبرق إلى الاسكندرية حيث كان باشا مقيما فى ذلك الوقت [4] وجاء فى تقرير قنصلى آخر أن مدافع الجيش تطلق أكثر من ساعة ونصف ساعة ، وأن الأتراك زلزلت قدامهم فجأة ، فطارت قلوبهم وولوا مدبرين ، وأنهم خسروا خمسة آلاف قتيل ونحو سبعة آلاف أو ثمانية آلاف أسير ، أما عدد الجرحى فلم يرد له ذكر فى هذا التقرير [1]

ولم يعش السلطان محمود حتى يعرف نتيجة مغامرته العظيمة ضد أعظم أتباعه وأشدهم بطشاً ، بل وافته المنية بعد يومين من واقعة نصيبين ، وقبل أن يصل نبأ هذه الطامة التى حلت بالجيش التركي إلى الآستانة . ويقول الڤيكونت بنسنبى فى موته : «لا شك فى أن العلة كانت قد نشرت جناحيها عليه منذ شهور ، وأنه لم يحس بوطأتها فظل يعمل كل ما من شأنه أن يعجل يوم حمامه »

وماذا كانت علة السلطان يا ترى ؟ لقد اختلف الأطباء فى تشخيص مرضه ، فأما الطبيب الانجليزى الدكتور ملجن Dr Milligen الذى عرض عليه فقال إن محموداً قضى نحبه بسبب اضطراب فى المخ ناتج من إدمان المسكرات ، وقال الدكتور نوز Dr Neuner الذى كان يعالجه إنه مات بذات الصدر ، ووافق الحكيم باشي التركى كبير أطباء القصر على رأى الطبيب البريطانى [2]

(يتبع) محمد عبد الله

(١) فنزنيه فى كتابه السالف الذكر ص ٣٣٠ .

(٢) مصر فى القرن التاسع عشر تأليف إدورد جون طبعه فى باريس يازار ص ٤٥٤ ؛ والكتاب مترجم إلى العربية بقلم الأستاذ محمد مسعود . (المعرب)

(٣) فى الأصل الانجليزى ٣ يونية ولقد استنتجنا من أول الأمر أنه ٣ ولية ثم رجعنا إلى المصدر الذى اعتمد عليه المؤلف وهو كتاب « النزاع ين تركيا ومصر » فوجدنا نسزا يقول بصريح العبارة إن الأخبار وصلت ل الاسكندرية من القاهرة بطريق البرق في ٣ يولية ثم تأيد النبأ فى المساء طاب جاء بالبريد . (المعرب)

(٤) بوليتس فى كتابه السالف الذكر ص ٧٠

(١) بوليتس فى كتابه السالف الذكر ص ٧٢

(٢) كدلفين وبرو فى كتابهما السالف الذكر ص ٣٠٦ وما بعدها .

لسان العرب

لابن منظور الافريقى المصرى

أكبر موسوعة عربية فى اللغة وما يتصل بها من تفسير القرآن الكريم وحديث الرسول والنحو والصرف والشعر والتاريخ والنبات والحيوان . . . مرتبة على الحروف الأبجدية باعتبار أوائل الكلمات — سارع من اليوم بأرسال طلب الاشتراك من دار الصاوى للطبع والنشر والتأليف بعطفة الشوشترى خلف بلاتشى بالموسكى — وقد ظهر منها جزءان ثمنهما ٣٠ قرشا والاشتراك فى الجزءين الثالث والرابع ٢٠ قرشاً عدا أجرة البريد — ويضاف ٥ قروش لتجليد كل جزءين تجليداً أفرنكياً مع كتابة الاسم .

والدار تلفت النظر إلى أنها أنشأت قسما لصنع الحروف العربية المتينة وهى مستعدة لتوريد ما يطلب منها بأثمان معتدلة